مجلة الحقوق

مجلة فصلية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات القانونية والشرعية

السنة الثامنة عشرة

العدد الثاني

ذو الحجة ١٤١٤ هـ

يونيو ١٩٩٤ م

الأصالة والتجديد في فقه السيوطي

الدكتور محمد جبر الألفي

الاستاذ المساعد في قسم الشريعة

كلية الشريعة والقانون - جامعة الإمارات

ثمن النسخة

نصف دينار كويتي

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

الألوكة

www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأصالة والتجديد في فقه السيوطي

الدكتور محمد جبر الألفي
الاستاذ المساعد في قسم الشريعة
كلية الشريعة والقانون - جامعة الإمارات

مقدمة :

لا يتردد الباحث المنصف في قبول دعوى الاجتهاد المطلق التي أعلنها السيوطي، وأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة ليجدد للأمة دينها؛ فقد أعلن مثل هذه الدعوى علماء أفاضل من قبله لم يصل بعضهم إلى ما وصل هو إليه من فقه النفس والغوص وراء المعاني والتبحر في مختلف العلوم والفنون رواية ودراية وجمعاً وتصنيفاً.

بدأت علاقتي بالسيوطي منذ نعومة أظفاري عندما شرعت في حفظ القرآن الكريم، وكان شيوخي ينصحون بقراءة «تفسير الجلالين» لفهم ما استغلق من ألفاظه ومعانيه، ثم توطدت هذه العلاقة بفضل أستاذنا الشيخ عبدالوهاب عبداللطيف، الذي كان يردد على مسامعنا في دروس «مصطلح الحديث» جهود السيوطي في خدمة علوم السنة، ويحثنا على أن نكتشف سبقه وتجديده فيما كتب. وفي فترة مقامي بفرنسا - للإفتاء والبحث والتدريس - التقيت بكثير من المستشرقين الذين كانوا يعجبون من أننا لم نوف السيوطي حقه، وهو - كما قال «بروكلمان» - أغزر الكتاب المصريين إنتاجاً في العصر المملوكي، بل لعله أغزر كتاب العربية قاطبة[1]. عند ذلك جمعت ما تيسر لي من كتبه المطبوعة، وما سمح لي بتصويره من المخطوطات، وكنت أمني النفس بإعادة طبع كتابه «الأشباه والنظائر» في قواعد وفروع فقه الشافعية، طبعة محققة، وأن أضع له شرحاً على غرار ما فعله الشيخ أحمد بن محمد الحنفي الحموي في «غمز عيون البصائر على محاسن الأشباه والنظائر» لابن نجيم الحنفي، ولكن صرفني عن ذلك

(١) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ١٣، ص ٢٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اشتغالي بعلم الخلاف الفقهي، وفن لغة الفقه، من غير أن تنقطع صلتي بالسيوطي أو متابعة ما يكتب عنه أو يقال.

ولما أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ندوة في أوائل مارس ١٩٧٦، لدراسة الشيخ جلال الدين السيوطي[١]. لم أشارك بها لظني أنها قد تقتصر على الجانب التاريخي فيما يتعلق بعصر السيوطي وبتحليل منهجه في كتابة التاريخ وإلقاء الضوء على مؤلفاته التاريخية، ولقد خاب ظني حين علمت بعد ذلك أن هذه الندوة تناولت - إلى جانب ما توقعت - مساهمة السيوطي في الدراسات القرآنية والحديثية.

وفي هذا العام تستعد بعض المؤسسات الثقافية للاحتفاء بمرور خمسة قرون على وفاة الإمام جلال الدين السيوطي، وذلك بإلقاء الضوء على مختلف جوانب المعرفة الموسوعية لهذا العالم الجليل. من أجل ذلك حرصت على المساهمة بهذا البحث للكشف عن الأصالة والتجديد في فقه السيوطي.

الأصالة:

ونعني بالأصالة: تحديد دور السيوطي تجاه التراث الفقهي، ومنهجه في إعادة عرض هذا التراث بأسلوب عصره بعد تنقيته مما شابه من ضعف، وتجلية ما طرأ عليه من غموض، وتكملة ما اعتراه من نقص أو قصور.

التجديد:

ونعني بالتجديد: تفاعل السيوطي مع مستجدات عصره ومشكلات مجتمعه، تفاعلا دفعه لأن يتحدث بما أنعم الله عليه من سعة العلم وفقه النفس وثاقب الفكر، فلا يلغي وجوده إزاء السلف الصالح من المجتهدين، ولا يبقى حبيس الدائرة التي رسمها أقرانه من المقلدين، وإنما يسير في طريق الاجتهاد بعد أن اجتمعت له أدواته، ويسعى نحو الابتكار حيثما تهيأت له أسبابه.

(١) جلال الدين السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفقه :

وحديثنا عن الأصالة والتجديد في فقه السيوطي لا يقتصر على المصطلح الفني للفقه، أي «العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة، كالوجوب والحظر والإباحة والندب والكراهة، وكون العقد صحيحاً أو فاسداً أو باطلاً، وكون العبادة قضاء أو أداءً وأمثاله»(١)، وإنما يمتد ليشمل النظر في الأدلة الشرعية التي تتعلق بها هذه الأحكام أي: «العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية بالاستدلال»(٢)، وبهذا يتسع الحديث لبيان منهج السيوطي في كل من أصول الفقه وقواعده وفروعه فنستعرض سمات الأصالة في مبحث أول، ومظاهر التجديد في مبحث آخر.

المبحث الأول
الأصالة في فقه السيوطي

عصره:

ولد السيوطي بالقاهرة في مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ(٣) الموافق ٣ من أكتوبر ١٤٤٥م(٤) وتوفى رحمه الله في ١٩ من جمادى الأولى سنة ٩١١هـ(٥)، الموافق ١٨ من أكتوبر ١٥٠٥م(٦)، فكانت حياته في النصف الثاني من القرن التاسع والعقد الأول من القرن العاشر الهجري، حيث كانت مصر قبلة الأنظار بعد أن صارت مقراً للخلافة العباسية التي سقطت على أيدي التتار في بغداد، وجرى التنافس بين سلاطين المماليك في إقامة البناء الفكري، فأنشأوا المدارس والمكتبات وكرموا الشيوخ والعلماء،

(١) الغزالي، المستصفي، مصر ١٣٢٢هـ، جـ ١ ص ٤ - ٥.
(٢) النسفي، التلويح شرح التوضيح، طبعة محمد علي صبيح بمصر، جـ ١ ص ١٢ - ١٣.
(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الحلبي ١٩٦٧ جـ ١ ص ٣٣٦.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ١٣، ص ٢٧.
(٥) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥١هـ جـ ٨ ص ٥٥.
(٦) في دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٣ ص ٢٧: «وتوفي السيوطي في ١٨ جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١٥٠٥م).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والقضاة وأخذوا بأيدي الطلاب، وعقدوا في قصورهم حلقات العلم، ورتبوا للأساتذة والمعيدين والمؤلفين والطلاب الأجور والمرتبات وقدموا لهم المنح والهدايا، فنشطت الحركة الفكرية وواصلت طريقها بمعزل عما كان يعتري البلاد في فترات كثيرة من الفوضى السياسية التي كانت تصاحب خلع السلاطين وعزل الولاة[1].

بيئته :

وكانت نشأة السيوطي في بيئة علمية فاضلة، فوالده الإمام العلامة كمال الدين السيوطي، تولى قضاء سيوط، ثم قدم القاهرة فأخذ العلم عن مشاهير عصره، مثل العلامة القاياتي والشيخ باكير والحافظ ابن حجر والشيخ محمد الجيلاني والشيخ عز الدين القدسي، ولما أجيز بالإفتاء والتدريس أفتى ودرس وناب في الحكم عن جماعة، وولى درس الفقه بالجامع الشيخوني، وخطب بالجامع الطولوني، وأم بالخليفة المستكفي بالله، وكان له عدد من التصانيف، وقد توفي سنة ٨٥٥هـ[2]. وكان الشيخ كمال الدين يتوسم في وليده الخير ويأمل في أن يواصل المسيرة، فكان يحمله إلى الصالحين يركون عليه، ويصحبه وهو طفل إلى مجالس العلماء، وأسند وصايته إلى جماعة، منهم العلامة كمال الدين بن الهمام، الذي أحسن رعايته ولحظه بنظره[3]، فحفظ القرآن العظيم وله من العمر دون ثماني سنين[4]، ثم تفرغ للمتون التي كان ينبغي حفظها قبل الالتحاق بالمدارس النظامية، فحفظ العمدة[5] ومنهاج الفقه[6]

(١) انظر في كل ذلك: سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٢.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٤٤١/٤٤٢.

(٣) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، بيروت ١٩٤٥، جـ ص ٢٢٦.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٦.

(٥) عمدة الأحكام للإمام الحافظ المقدسي، طبع بشرح لابن دقيق العيد يسمى: أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

(٦) المنهاج، في فقه الشافعية، للنووي. طبع عدة طبعات، وترجم إلى الفرنسية، وقام بشرحه والتعليق عليه وتخريج أحاديثه وإعراب مشكله عدد كبير من علماء المذهب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والأصول[1] وألفية ابن مالك[2].[3].

اشتغاله بالعلم:

وفي مستهل سنة أربع وستين شرع في الاشتغال بالعلم، فاختار جماعة من مشاهير علماء عصره يتلقى عن كل منهم ما نبغ فيه من العلوم والفنون، فلازم في الفقه شيخ الإسلام علم الدين البلقيني إلى أن مات فلازم ولده حتى مات، فلزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوي. وأخذ الفرائض عن العلامة فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي. ودرس الحديث والعربية على الشيخ الإمام العلامة تقي الدين الشمني الحنفي[4]. ولزم في التفسير والأصول والعربية والمعاني وغيرها الشيخ العلامة أستاذ الوجود محيي الدين الكافيجي. وحضر عند الشيخ سيف الدين الحنفي دروساً عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه وتلخيص المفتاح والعضد[5] ولم يكتف السيوطي بالأخذ عن علماء مصر. بل سافر إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور[6]. ويبدو أن السيوطي بعد أن استخرج ما في جعبة علماء عصره، قرر أن يكتفي بما سمعه منهم، ليتفرغ للاطلاع بنفسه على أمهات الكتب، ويعمل فكره فيها بالاختصار أو الشرح أو التعليق[7]، فانكب على خزائن الكتب ينهل منها بهمة عالية وعقلية ناقدة وبصيرة نافذة. ولعل أهم هذه الخزائن التي أفاد منها السيوطي: المكتبة

(١) منهاج الأصول، للقاضي البيضاوي، شرحه جمع من العلماء، وطبع مع شرحه نهاية السول، للأسنوي، وسلم الوصول للشيخ بخيت بالمطبعة السلفية ١٣٤٣هـ.

(٢) ألفية ابن مالك، في النحو، وهي وشروحها المطبوعة أشهر من أن تعرف.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٣٦.

(٤) في حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٧ «تقي الدين الشبلي» والتصحيح من نفس المرجع: ص ٤٧٤.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٨

(٦) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٨. وقد ذكر في ص ٣٣٩: أن عدة شيوخه في الرواية سماعاً وإجازة نحو مائة وخمسين. أوردهم في معجم الشيوخ الكبير «حاطب ليل وجارف سيل»، وفي المعجم الصغير «المنتقى». نفس المرجع: ص ٣٤٤

(٧) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المحمودية[1] التي ألحقت بالمدرسة المحمودية التي أنشأها الأمير جمال الدين الأستادار سنة ٧٩٧هـ وأودع بها نفائس الكتب، وألف السيوطي فيها: «بذل المجهود لخزانة محمود»[2].

وظائفه :

بعد أن أجيز السيوطي بالتدريس ثم بالإفتاء، شرع في التصنيف سنة ٨٦٦هـ[3] وأفتى من مستهل سنة ٨٧١هـ[4]. وعقد إملاء الحديث من مستهل سنة ٨٧٢هـ[5]، ودرّس بجامع ابن طولون[6]، وبالشيخونية[7]، وتولى مشيخة الصوفية بتربة برقوق[8]، واستقر في مشيخة البيبرسية بعد الجلال البكري[9]، وفي سنة ٩٠٢هـ عينه الخليفة المتوكل قاضياً على القضاة في سائر ممالك الإسلام، يولي منهم من يشاء ويعزل من يشاء، ولكن القضاة اعترضوا على إنشاء هذه الوظيفة، وأقنعوا الخليفة بالعدول عنها[10]، فاعتزل السيوطي الحياة العامة، واعتكف في منزله بجزيرة الروضة حتى مات[11].

سمات الأصالة:

اقتضي قيام السيوطي بوظائف التدريس والإفتاء وإملاء الحديث، في وقت كثر فيه أئمة العلوم والفنون من أمثال: زكريا الأنصاري وخالد الأزهري والقسطلاني وبدر الدين البلقيني والأشموني والشهاب المنصوري والسخاوي والأقصرائي وزينب بنت السبكي وزينب بنت الحافظ العراقي، أن يختط لنفسه منهجاً خاصاً في تناول كتب التراث

(١) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ١٣٥٣هـ وما بعدها، جـ ٤ ص ٦٦.

(٢) نشر بتحقيق فؤاد السيد، مجلة معهد المخطوطات العربية، م ٤، ج ١، مايو ١٩٥٨.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٧/٣٣٨.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٨.

(٥) نفس المرجع السابق، وكان إملاء الحديث قد انقطع بمصر بعد وفاة الحافظ ابن حجر.

(٦ - ٩) السخاوي، الضوء اللامع، جـ ٤ ص ٦٦ - ٦٩.

(١٠) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، جـ ٢ ص ٣٠٧.

(١١) ابن العماد، شذرات الذهب، جـ ٨ ص ٥٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بنظرة الناقد الخبير، وإعادة عرضها بما يتناسب وحال طلاب العلم والمعرفة، حتى يعم نفعها ويسهل تناولها.

١ - الاختصار والنظم:

اتجه السيوطي إلى اختصار أمهات الكتب - وصياغتها في قوالب متون أو منظومات تيسيراً على الدارسين في زمن تسود فيه ملكة الحفظ وتقاس فيه مرتبة العالم بمقدار ما يحفظه من نصوص التراث. وقد يبدو أن هذا العمل مجرد جهد مادي محدود الجدوى. ولكن الباحث المنصف يعلم أن عملية الاختصار أو النظم لا يحسنها إلا من وهبه الله عقلية علمية شاملة، ورزقه مقدرة فائقة على التحصيل والفهم، وأتاه الحكمة وفصل الخطاب حتى يستوعب أفكار الأوائل ثم يخرجها بدقة وأمانة في ثوب جديد. فمن مختصرات السيوطي ومنظوماته في مجال الفقه:

- تحقيق الخادم، وهو مختصر كتاب خادم الرافعي والروضة في الفروع[١].
- القنية، وهو مختصر الروضة، في الفقه، للنووي[٢].
- الوافي، وهو مختصر التنبيه، في الفقه، للشيرازي[٣].
- مختصر الأحكام السلطانية للماوردي[٤].
- مختصر إحياء علوم الدين، للغزالي[٥].
- الخلاصة، وهو نظم لكتاب الروضة للنووي[٦].
- الابتهاج بنظم المنهاج[٧].

---

(١) أحمد الخازندار ومحمد الشيباني، دليل مخطوطات السيوطي، الكويت ١٩٨٣، ص ١٠٥.

(٢ - ٤) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٤٢.

(٥) السيوطي، نفس المرجع، ص ٣٤٤.

(٦) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٤٢.

(٧) أحمد الخازندار ومحمد الشيباني، المرجع السابق، ص ٩٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٢ - الشرح والتعليق:

تناول السيوطي أهم كتب الفقه الشافعي وأصوله بالنقد والتحقيق والشرح والتعليق، وتخريج الروايات وتصحيح الأقوال والوجوه ولم يكتف بكتب المذهب، وإنما تطرق إلى بعض كتب المذاهب الأخرى، فكتابه «المعتصر في تقرير عبارة المختصر» تعليق على عبارات في مختصر «سيدي خليل» في فقه المالكية، لم ترد في غيره من كتب الفقه(١). ويبدو أن اشتغال السيوطي بتمحيص كتب الفقه قد أحاط بأقطار فكره، حتى إنه يرى في المنام كأنما يناقش العلماء في مؤلفاتهم(٢). وقد لفت نظري أنه كان شديد الاهتمام بكتاب النووي «روضة الطالبين وعمدة المفتين»، وهو مختصر لكتاب الرافعي «فتح العزيز في شرح الوجيز» للغزالي، لأن الروضة كانت عمدة المذهب في هذه الأيام، «وقد أكثر الناس من الكتابة عليها والكلام على مواضع وتصحيحات فيها، ظاهرها التناقض، ومواضع فيها مخالفة للشرح، كالأسنوي والأذرعي والبلقيني والزركشي وغيرهم... وقد شرعت في تلخيص أحكامها من غير ذكر خلاف، وضممت إليها زيادات شرح المهذب وبقية تصانيفه وتصانيف من بعده، كابن الرفعة والسبكي والأسنوي وغيرهم... إلى أن أعان الله على إتمامه»(٣). فمن شروحه وتعليقاته على «الروضة». الأزهار الغضة في حواشي الروضة(٤)، والعذب السلسل في تصحيح الخلاف المرسل في الروضة(٥) والينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع(٦)، ومن شروحه وتعليقاته على كتب فقهية أخرى:

در التاج في إعراب مشكل المنهاج(٧). الحاشية على القطعة،

(١) طاهر سليمان حمودة، جلال الدين السيوطي، بيروت ١٩٨٩، ص ٤٠٩.

(٢) السيوطي، المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي، تحقيق أحمد شفيق دمج، دار ابن حزم، بيروت ١٩٨٨، ص ٦٠: «وقد كنت في أول اشتغالي» رأيت الشيخ في النوم، وكأني حضرت درسه فقلت له في شأن المنهاج والاعتراضات التي أوردت عليه، فأخذ يصلح العبارة إلى أن خرج الكتاب عن هيئته، فقلت له: يا سيدي، اجعل هذا كتاباً على حدته غير المنهاج».

(٣) السيوطي، المنهاج السوي، ص ٥٤/٥٥.

(٤ - ٦) السيوطي - حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٤٢.

(٧) أحمد الخازندار ومحمد الشيباني، المرجع السابق، ص ١٠٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للأسنوي[١]. دفع الخصاصة في شرح الخلاصة[٢]. شرح الروض[٣]. زوائد المهذب على الوافي[٤]. شرح الرحبية في الفرائض[٥]. شرح التنبيه للشيرازي[٦]. شرح الكوكب الساطع في نظم جمع الجوامع[٧]. نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير[٨].

٣ - التأصيل وضبط القواعد:

يمثل هذا اللون من الجهد العلمي والتفتح الذهني مرحلة وسطاً بين الأصالة والتجديد، إذ أنه يتناول مناهج العلماء السابقين في محاولة استنباط قواعد كلية تدور حولها الأحكام الفرعية، فيهذبها ويكملها ويعيد ترتيبها وصياغتها، ويتفنن في جمع الأشباه والنظائر، وينبه على أسس الخلاف ومواضعه.

وقد اتبع السيوطي هذا المنهج في أغلب العلوم والفنون التي تصدى لها التفسير والحديث والفقه والنحو والتصوف والتاريخ، وتجلت موهبته في ممارسة هذا المنهج بكل اقتدار عند تأليفه كتاب: «الأشباه والنظائر» في القواعد الفقهية، و«الأشباه والنظائر» في النحو. ولنقتبس من كلام السيوطي ما يجلي لنا هذا الموقف، يقول: «ولقد نوعوا هذا الفقه فنوناً وأنواعاً، وتطاولوا في استنباطه يداً وباعاً. وكان من أجل أنواعه: معرفة نظائر الفروع وأشباهها، وضم المفردات إلى أخواتها وأشكالها. ولعمري، إن هذا الفن لا يدرك بالتمني، ولا ينال بسوف ولعل ولو اني، ولا يبلغه إلا من كشف عن ساعد الجد وشمر، واعتزل أهله وشد المئزر، وخاض البحار وخالط العجاج، ولازم الترداد إلى الأبواب في الليل الداج. يدأب في التكرار والمطالعة بكرة وأصيلا، وينصب نفسه للتأليف والتحرير بياتاً ومقيلا، ليس له همة إلا معضلة يحلها، أو مستعصية عزت على القاصرين فيرتقى إليها ويحلها.. قد ضرب مع الأقدمين بسهم.. يقتحم المهامة المهولة الشاقة.. له نقد يميز به بين الهباب والهباء، ونظر يحكم إذا اختلفت الآراء بفصل القضاء، وفكر لا يأتي عليه تمويه الأغبياء، وفهم ثاقب لو أن المسألة من خلف جبل قاف لخرقه حتى يصل إليه من وراء. على أن هذا ليس من كسب العبد، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء»[٩].

(١ - ٨) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٤١ - ٣٤٣.

(٩) السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد أن يستعرض خطة البحث وترتيب أبوابه ومضمون كل كتاب وجهده في تتبع القواعد وأصولها وشواهدها، يقول: «وهذا أمر لا ترى عينك الآن فقيهاً يقدر عليه، ولا يلتفت بوجهه إليه، وأنت إذا تأملت كتابي هذا علمت أنه نخبة عمر، وزبدة دهر،.. فإني عمدت فيه إلى مقفلات ففتحتها، ومعضلات فنقحتها، ومطولات فلخصتها، وغرائب قل أن توجد منصوصة فنصصتها»[1]. ولا ينسى السيوطي أن يبين أن إمام هذا الفن هو أبو طاهر الدباس إمام الحنفية بما وراء النهر، وتبعه القاضي حسين والشيخ تاج الدين السبكي والشيخ عز الدين بن عبدالسلام[2]. ومن العجب العجاب أن يأتي بعد السيوطي عالم علامة في الفقه الحنفي، هو ابن نجيم المصري (المتوفى ٩٧٠هـ) فينقل نقلاً حرفياً من السيوطي ولا يشير إليه؛ ثم يزعم أنه ألهم أن يضع كتاباً على نمط كتاب الشيخ تاج الدين بن السبكي الشافعي، لما رأى أن المشايخ الكرام لم يدونوا كتاباً مثل كتاب السبكي الذي يشتمل على فنون في الفقه[3].

رد على افتراء:

بعد ما سبق عرضه عن منهج السيوطي في تناول كتب التراث، لا يسعنا قبول الدعوى التي تتهم الشيخ جلال الدين بالسطو على كتب الأقدمين وتحويرها ثم نسبتها لنفسه، كما لا يسعنا قبول الدعوى الأخرى التي تنفي نسبة عدد كبير من المؤلفات إليه.

دعوى السطو:

بدأ هذه الدعوى «شمس الدين السخاوي» القاهري الشافعي المتوفى سنة ٩٠٢هـ، في كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»[4]، حين اتهم السيوطي بأنه اختلس منه حين كان يتردد عليه كثيراً من الأعمال: كالخصال الموجبة للظلال، والأسماء النبوية، والصلاة

(١) السيوطي، نفس المرجع، ص ٥.

(٢) السيوطي، المرجع السابق، ص ٨/٧.

(٣) ابن نجيم، الأشباه والنظائر، تحقيق وتقديم محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، تصوير ١٩٨٦ عن طبعة ١٩٨٣ ، ص ١٠ - ١٢.

(٤) طبع في ١٢ جزءاً، بالقاهرة سنة ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ ١٩٣٤ - ١٩٣٦م، وفي بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على النبي ﷺ، وموت الأبناء، وما لا يحصره[١]. كما اتهمه بأنه: أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها من فنون، فغير فيها يسيراً، وقدم وأخر ونسبها لنفسه. وهول في مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئاً مما لا يوفي ببعضه[٢]. واتهمه كذلك بأن ما كتبه في «تحريم المنطق» جرده من مصنف لابن تيمية[٣]. وأن كثيراً من كتبه قد اختلسها من مصنفات ابن حجر ومسخها ثم نسبها لنفسه، مثل: لباب النقول في أسباب النزول، وعين الإصابة في معرفة الصحابة، والنكت البديعات على الموضوعات، والمدرج إلى المدرج، وتذكرة المؤتسى بمن حدث ونسي، وتحفة النابه بتلخيص المتشابه، وما رواه الواعون في أخبار الطاعون، والأساس في مناقب بني العباس، وجزء في أسماء المدلسين، وكشف النقاب عن الألقاب، ونشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير[٤].

وقد تولى السيوطي الرد على هذه الادعاءات بقلمه اللاذع وأسلوبه الساخر وحججه القوية ومنهجه الموضوعي بطريق مباشرة وغير مباشرة، فمما كتبه للرد على هذه الادعاءات: «الفارق بين المصنف والسارق»[٥]، و«الكاوي في تاريخ السخاوي»[٦]، و«الدوران الفلكي على ابن الكركي»[٧]، و«القول المجمل في الرد على المهمل»[٨]، و «طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة»[٩]، و«التعريف بآداب التأليف»[١٠] وغيرها. كما تولى الدفاع عنه عدد من العلماء والمفكرين، نذكر منهم: الإمام الشعراني - المتوفى سنة ٩٧٣هـ - في ذيل طبقاته[١١]. والإمام الشوكاني -

(١ - ٣) السخاوي، الضوء اللامع، طبعة القاهرة، جـ ٤ ص ٦٦.

(٤) السخاوي، نفس المرجع جـ ٤ ص ٦٨.

(٥) توجد نسخة مخطوطة منه في: ليدن ٦٧٣٤.

(٦) توجد نسخة مخطوطة منه في دار الكتب المصرية: ٢٠٢ مجاميع.

(٧) توجد نسخة مخطوطة منه في: برلين ٨٥٧١.

(٨) توجد نسخة مخطوطة منه في دار الكتب المصرية: ١١٨ مجاميع.

(٩) توجد نسخة مخطوطة منه في دار الكتب المصرية: ١٦٠٤٣.

(١٠) السيوطي، التعريف بآداب التأليف، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم. مكتبة التراث الإسلامي القاهرة ١٩٨٩.

(١١) الشعراني، ذيل الطبقات، مخطوط بدار الكتب المصرية: ٤٩٣ تاريخ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المتوفى سنة ١٢٥٠هـ - في البدر الطالع،[١] وفيه يقول عن السخاوي: «كثير التحامل على أكابر أقرانه.. لا يقيم لهم وزناً، بل لا يسلم غالبهم من الحط عليه.. فليعرف المطلع على ترجمة هذا الفاضل - أي السيوطي - في الضوء اللامع أنها صدرت من خصم له غير مقبول عليه»[٢]، وفي تفنيد دعوى السطو، يقول الشوكاني: «.. ما زال دأب المصنفين، يأتي الآخر فيأخذ من كتب من قبله، فيختصر أو يوضح أو يعترض أو نحو ذلك من الأغراض التي هي الباعثة على التصنيف. ومن ذاك الذي يعمد إلى فن قد صنف فيه من قبله فلا يأخذ من كلامه؟..»[٣]. ونحن نتفق مع ما قيل بحق من أن السيوطي - وبعض معاصريه من العلماء - قد قاموا بعملين رائعين أولهما: الحفاظ على التراث العلمي والأدبي. والآخر: تجديد هذا التراث وتنميته بإدخال إضافات عليه لم تخطر للأسلاف على بال[٤].

ونضيف إلى ذلك: أن السيوطي قد اختط لنفسه منهجاً علمياً يعتمد على الأمانة في كل ما ينقل أو ينسب إلى الآخرين، ويكفي إلقاء نظرة على مقدمات كتبه وبعض أبوابها وفصولها لنرى مدى التثبت مما ينقل ونسبته إلى قائله، فهو قد غلبت عليه نزعة رواية الحديث والدقة في سنده ومتنه، فطبق هذا المعيار على كل ما كتب وصنف[٥].

---

(١) الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٤٨هـ.

(٢) الشوكاني، البدر الطالع، جـ ١ ص ٣٣٣/٣٣٤.

(٣) الشوكاني، نفس المرجع، ص ٣٣٣.

(٤) شوقي ضيف ، عصر إحياء التراث، مجلة المجلة، فبراير ١٩٦٧، ص ٨ نقلاً عن: عبدالحليم هاشم الشريف، السيوطي وجهوده في علوم القرآن، القاهرة ١٩٩١ ص ٤٣.

(٥) انظر على سبيل المثال: مقدمة كتاب «التحبير في علوم التفسير» «والإتقان في علوم القرآن» و «تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي» و «الأشباه والنظائر» في الفقه و«الأشباه والنظائر» «في النحو» و«الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» والرسائل التي تضمنها كتاب «الحاوي للفتاوي» و «تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد» ومقدمة كتاب «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» وآخر كتاب «تاريخ الخلفاء» ومقدمة كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» و «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» وفيه يقول: «ولهذا لا تراني أذكر في شيء من تصانيفي حرفاً إلا معزواً إلى قائله من العلماء، مبيناً كتابه الذي ذكر فيه» جـ ٢ ص ٣١٩. و «الاقتراح في علم أصول النحو» وغير ذلك.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ب - كثرة مؤلفاته:

جاء في «حسن المحاضرة» للسيوطي: وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه»[١]. وقد ذكر أسماءها مرتبة على: فن التفسير وتعلقاته والقراءات، وفن الحديث وتعلقاته، وفن الفقه وتعلقاته، وفن العربية وتعلقاته، وفن الأصول والبيان والتصوف، وأخيراً فن التاريخ والأدب[٢]. ومن المرجح أن «حسن المحاضرة» تم تأليفه في أوائل القرن العاشر الهجري، أي قبل وفاة السيوطي بنحو عشر سنين[٣]. وبعد وفاة السيوطي اختلف المؤرخون والباحثون في عدد مؤلفاته، فبينما يرى البعض أنها تزيد على أربعمائة[٤] ينسب له «فلوجل» ٥٦١ مؤلفاً[٥]، ويذكر البعض أنها بلغت ستمائة[٦]، وقد أحصى له أحمد الشرقاوي ٧٢٥ مؤلفاً[٧]، بينما أحصى له الخازندار والشيباني ٩٨١[٨].

وهذا العدد الضخم من المؤلفات التي نسبت للسيوطي، طوع للبعض أن يدعي أن تلامذة السيوطي كانوا ينقبون عن النصوص المختلفة ويجمعونها ثم يقدمونها لشيخهم فيرتبها حسب قدرته الاستيعابية لعلوم عصره[٩].

والواقع أن الدارس لسيرة السيوطي يستبعد هذا الادعاء، لأنه باحث مدقق لا يقبل قول غيره - ولو كان من شيوخه - إلا بعد بحث وتمحيص شديدين، ونذكر على سبيل

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٨.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٤.

(٣) سيدة إسماعيل كاشف، دراسة نقدية لكتاب حسن المحاضرة للسيوطي، ضمن ندوة جلال الدين السيوطي، مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٤) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبدالحليم النجار، القاهرة ١٩٦١؛ جـ ٢ ص ١٤٥.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، جـ ١٣ ص ٢٧.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق مصطفى محمد، القاهرة ١٩٦٣، جـ ٣ ص ٦٣.

(٧) أحمد الشرقاوي إقبال، مكتبة الجلال السيوطي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ١٩٧٧.

(٨) أحمد الخازندار ومحمد الشيباني، دليل مخطوطات السيوطي، الكويت ١٩٨٣.

(٩) أورد هذه الدعوى، ورد عليها: عبدالعال سالم مكرم، جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٨٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المثال هذه الحادثة التي جرت مع شيخه الإمام العلامة تقي الدين الشمني الحنفي: «فإنه أورد في حاشيته على الشفاء حديث أبي الجمرا في الإسرا، وعزاه إلى تخريج ابن ماجه، فاحتجت إلى إيراده بسنده، فكشفت ابن ماجه في مظنته فلم أجده، فمررت على الكتاب كله فلم أجده، فاتهمت نظري، فمررت مرة ثانية فلم أجده، فعدت ثالثة فلم أجده، ورأيته في معجم الصحابة لابن قانع، فجئت إلى الشيخ وأخبرته، فبمجرد ما سمع مني ذلك أخذ نسخته وأخذ القلم فضرب على لفظ ابن ماجه وألحق ابن قانع في الحاشية، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي، واحتقاري في نفسي، فقلت: ألا تصبرون؟ لعلكم تراجعون فقال: لا، إنما قلدت في قولي - ابن ماجه - البرهان الحلبي»[1].

والتفسير الصحيح لكثرة مؤلفات السيوطي يرجع لاعتبارات عدة:

١ - فقد بدأ السيوطي الاشتغال بالعلم في سن مبكرة، وساعده على ذلك نبوغ فطري، وبيئة علمية فاضلة، ويسر تام في الاستفادة من نفائس الكتب، حتى إنه شرع في التأليف وعمره سبع عشرة سنة[2].

٢ - أفتى السيوطي من مستهل سنة ٨٧١[3]، وعمره اثنتان وعشرون سنة، ومعلوم أن الإفتاء في هذا الوقت - مع وجود الجم الغفير من كبار العلماء - يستدعي سعة الاطلاع والقدرة الفائقة على تخير أنسب الحلول بأدلتها، وقد سجل السيوطي هذه الفتاوى، واعتبر كلاً منها واحداً من مصنفاته ولو كانت في ورقة واحدة!

٣ - كانت ذاكرة السيوطي الحافظة الواعية من أسباب الإكثار في التصنيف لدرجة يصعب متابعتها، وفي ذلك يقول: «ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٧/ ٣٣٨.
(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٨.
(٣) نفس المرجع السابق، نفس الموضع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله»[١]. وقد ذكر في تفسير الجلالين، بعد أن صنف من أول البقرة إلى آخر الإسراء، أنه ألف هذا الجزء في قدر ميعاد الكليم وهو أربعون يوما![٢]. وذكر تلميذه الداودي أن السيوطي كان في سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله، فقد عاينه وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً، وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة[٣].

٤ - روى المؤرخون عن السيوطي أنه بدأ في سن الأربعين يعتزل الحياة العامة ويتفرغ للتأليف[٤]، وألف في ذلك: «التنفيس في الاعتذار عن ترك الفتيا والتدريس»[٥]، وهذه الفترة التي تزيد عن عشرين عاماً يمكن للسيوطي أن يؤلف فيها الشيء الكثير، وخاصة بعد أن بلغ مرحلة النضج الفكري وأعرض عن الدنيا وأهلها.

٥ - على أننا نلاحظ أن بعض ما نسبه إليه المؤرخون من تآليف يرجع إلى الوهم أو الخطأ: فكتاب «سبل السلام شرح بلوغ المرام» الذي نسبه إليه الخازندار والشيباني[٦]، هو من تأليف الشيخ محمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني المعروف بالأمير المتوفى سنة ١١٨٢هـ. وكتاب «مطالب أولى النهي في شرح غاية المنتهى» الذي نسبه إليه المؤلفان[٧]، هو من تأليف الشيخ مصطفى السيوطي

(١) نفس المرجع، جـ ١ ص ٣٣٩.

(٢) تفسير الجلالين: آخر سورة الإسراء.

(٣) نقل ذلك الشيخ عبدالوهاب عبداللطيف في مقدمة تدريب الراوي (ح) عن ذيل الطبقات الكبرى للشعراني.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب، جـ ٨ ص ٥٣. الغزي، الكواكب السائرة، بيروت ١٩٤٥، جـ ١ ص ٢٢٨.

(٥) الخازندار والشيباني، دليل مخطوطات السيوطي، ص ٢٦٥.

(٦) دليل مخطوطات السيوطي ص ١١٦، رقم ٣٤٣.

(٧) نفس المرجع، ص ١٣١، رقم ٤٠٥، نقلاً عن إيضاح المكنون ٢/٤٩٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرحيباني الحنبلي المتوفى سنة ١٢٤٣هـ، وكتاب «المغرب في لغة الفقه» الذي نسباه إليه أيضاً[١]، هو من تأليف الشيخ المطرزي الحنفي المتوفى سنة ٦١٠هـ.

٦ ـ سبق أن ذكرنا أن من مؤلفات السيوطي ما لا يتجاوز ورقة أو ورقات، وأن منها ما هو تلخيص أو نظم لمؤلف آخر له، ومن مؤلفاته ملاحظات يعلق بها أو يكمل أحد كتبه ويعتبر تأليفاً جديداً، وقد ضم كتاب «الحاوي للفتاوى» حوالي ٧٨ عنواناً وردت في كتب الفهارس على أنها مصنفات مستقلة، ويعتبر كتابه «الإتقان في علوم القرآن» موسوعة تحوى كثيراً مما كتبه في علوم القرآن الكريم، وتتكرر «الطبقات» في كتب التاريخ ثم تفرد لها مصنفات مستقلة.

وهكذا يمكن القول – بوجه عام – إنه لا يجوز التشكك في مقدرة السيوطي على تأليف هذا العدد الكبير من الكتب والرسائل والمقامات والفتاوى.

المبحث الثاني
التجديد في فقه السيوطي

تمهيد:

ولد السيوطي في بلد الثقافة الموسوعية، وشب وترعرع في بيئة علمية يسرت له كل أسباب التزود بالفنون والمعارف، وأحس في مقتبل عمره بما وهبه الله من نبوغ مبكر وعبقرية فذة، وقدر حق التقدير قيمة اعتماده على نفسه في اكتشاف التراث والغوص وراء المعاني[٢]، فلم يتردد – وهو لا يزال في ريعان الشباب – في أن يخوض غمار الحياة الاجتماعية بالتدريس والإفتاء وإملاء الحديث والتصنيف في شتى العلوم والفنون، ولعل هذه الجرأة من جانبه أثارت عليه حفيظة بعض معاصريه ممن كانوا يرون العلم وقفاً على «كل شيخ وعجوز»[٣] ، أو بعضهم الآخر من الذين أكل الحقد قلوبهم لما

(١) نفس المرجع، ص ١٣١، رقم ٤٠٩. نقلاً عن كشف الظنون ١٧٤٨.

(٢) السيوطي، الحاوي للفتاوي، دار الكتاب العربي، بيروت د. ت، جـ ٢ ص ٥٣٢.

(٣) السيوطي، تدريب الراوي، تحقيق: أحمد عمر هاشم، دار الكتاب العربي بيروت: ١٩٨٥ جـ ١ ص ٢٠. والأشباه والنظائر في الفقه، ص ٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رأوا من دقة فهمه وقوة استيعابه وغزارة علمه واعتداده بشخصيته، فانبرى هؤلاء وأولئك للنيل منه وإلصاق التهم به[1]، والتشنيع عليه بأنه ادعى الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة[2]، مما حدا بالسيوطي إلى أن يقول: «وأما ما يتعلق بدعوى الاجتهاد، فإني لم أقله في الابتداء صريحاً بلساني، وإنما ذكرت ذلك في بعض الكتب.. فنقله من قصد التشنيع لا الشهرة، فلما روجعت فيه صرت أقرر لمن راجعني فيه أمره.. مع أنني عددت تصدي هذا العدو لإشهاره فضلاً من الله أجراه على يديه»[3]. وسوف نلقي الضوء بإيجاز على دعوى اجتهاد السيوطي، ثم نتحدث عن دعواه الأخرى بأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة.

وأخيراً نحاول إبراز مظاهر التجديد في فقه السيوطي.

أولاً - دعوى الاجتهاد

أول ما يلفت نظر الباحث هو أن السيوطي ترجم لنفسه في حسن المحاضرة اقتداء بالمحدثين قبله[4] وأنه اختار لهذه الترجمة باب: «ذكر من كان بمصر من الأئمة المجتهدين»[5]. من أمثال: عمر بن عبدالعزيز ونافع مولى ابن عمر والليث بن سعد والإمام الشافعي والبويطي وحرملة والمزنى ومحمد بن نصر المروزي وأبو إسحاق المروزي وعز الدين بن عبدالسلام والقرافي وابن دقيق العيد وابن الرفعة والسبكي وابنه عبدالوهاب وسراج الدين البلقيني، وهذه إشارة إلى أنه يعتبر نفسه من الأئمة المجتهدين.

وفي ترجمته لنفسه نجده يلمح إلى أنه نشأ نشأة مباركة: «وحملت في حياة أبي إلى

(١) انظر الهوامش السابقة: من ٥٩ إلى ٦٣. وانظر أيضاً: السيوطي، الحاوي على الفتاوي، جـ ٢ ص ٥٣٢/٥٣٣

(٢) طاهر سليمان حمودة، جلال الدين السيوطي: ص ١٣٥/ ١٣٦، نقلاً عن ذيل الطبقات للشعراني.

(٣) السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، قدم له وحققه: الشيخ خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣، ص ١٣.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٦.

(٥) السيوطي، نفس المرجع، ص ٢٩٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشيخ محمد المجذوب - رجل كان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسي - فبرك على»[1] وفي عمله بالحديث الشريف: «ماء زمزم لما شرب له»[2] قال: «ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور منها: أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر»[3]. وفي حديثه عن الإمام النووي يقول: «وقد كنت في أول اشتغالي رأيت الشيخ في النوم وكأني حضرت درسه... ثم إنه ركب حماراً عالياً ومشيت خلفه مسافة يسيرة، فأعطاني عمامته وفارقته، فانتبهت»[4].

وفي ترجمته لنفسه يقول: «وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر! ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفًا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله»[5].

لقد أثارت دعوى السيوطي الاجتهاد جدالاً كبيراً استطاع أن يصوره لنا بقلمه: «ثم استهلت سنة تسع وثمانين، ولهم ضجيج وعجيج، ولا عجيج الحجيج، وجروا قضية دعوى الاجتهاد، واجتمعوا بكل كبير في البلد من كاتب السر والأمراء والرؤساء، وسألوهم في رفع الأمر إلى السلطان ليعقد بيني وبينهم مجلساً يناظرونني فيه، فلما بلغني ذلك قلت: العلماء قد نصوا على أنه لا يسوغ للمجتهد أن يناظر المقلد، فمناظرتي تحتاج إلى حضور مجتهدين: مجتهد يناظرني، ومجتهد يكون حكماً بيني

(١) السيوطي، نفس المرجع، ص ٣٣٦.

(٢) رواه البيهقي وغيره، وصححه المنذري، وحسنه ابن حجر، وقد شربه جماعة من العلماء فنالوا مطلوبهم، وكان ابن عباس إذا شربه يقول: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من كل داء» قال الحاكم: صحيح الإسناد، انظر الشربيني الخطيب، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، طبعة الحلبي: ١٩٥٨، جـ ١ ص ٥١١.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٨.

(٤) السيوطي، المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي، ص ٦٠.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٩. وفيه: «.. آلات الجهاد...».

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبين من يناظرني»[1]. وفي مقام آخر يقول: «جولوا في الناس جولة، فإنه ثم من ينفخ أشداقه ويدعى مناظرتي، وينكر على دعواي الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائه، ويزعم أنه يعارضني ويستجيش على من لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ونفخت عليهم نفخة صاروا هباء منثوراً»[2].

حكم الاجتهاد:

أورد السيوطي نصوصاً لعلماء من جميع المذاهب تتفق على أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفايات، إذا اشتغل بتحصيله واحد سقط الفرض عن الجميع، وإن قصر فيه أهل عصر عصوا بتركه وأشرفوا على خطر عظيم، وأنه لا يجوز شرعاً إخلاء العصر منه، لأن الخلو من مجتهد يلزم منه اجتماع الأمة على الخطأ، وهو ترك الاجتهاد الذي هو فرض كفاية، وأن ترك الاجتهاد يؤدي إلى إبطال الشريعة، لأن قوام الشرع بالمجتهدين[3].

شروط الاجتهاد:

نقل السيوطي في «تقرير الاستناد»[4] آراء جماعة من العلماء - كالشهرستاني والرافعي والنووي والغزالي والتميمي والرازي والأرموي وابن الصلاح - في الشروط التي ينبغي توافرها لبلوغ رتبة الاجتهاد، والعلوم التي لابد منها لتحصيل هذه الرتبة، ثم حاول حصرها في خمسة عشر، وبين مدى انطباقها على حالته مما سوغ له إدعاء الاجتهاد[5].

أحدها: علوم الكتاب العزيز وهي كثيرة جداً، قال: إنه جمع في أصولها كتاب

(١) السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض، ص ١٣/١٤.

(٢) السيوطي، الحاوي للفتاوي، جـ ٢ ص ٢٤٨.

(٣) السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض، ص ٦٧ وما بعدها، وانظر له أيضاً: تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد، ص ٢٩ وما بعدها.

(٤) السيوطي، تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد، ص ٣٨ - ٤٦.

(٥) السيوطي، تقرير الاستناد، ص ٤٧ - ٥٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

«الإتقان في علوم القرآن»[١]، وفي أسباب النزول «لباب النقول»[٢] وهو كتاب لم يؤلف مثله، وصنف فيما ورد من الأخبار والآثار في معاني الآيات «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»[٣]، وفي معرفة ما استنبطه العلماء منه في الأحكام «الإكليل في استنباط التنزيل»[٤]، وفي معرفة أسراره وبلاغته ومجازاته وأساليبه «أسرار التنزيل»[٥]، وكثير غير ذلك.

الثاني: علوم السنة، وهي مائة علم، قال: إنه شرحها في الكتب التي ألفها في علوم الحديث، وأحاط بها إحاطة شاملة.

الثالث: علم أصول الفقه، قال: وقد ألفت فيه منظومة: «جمع الجوامع»[٦] وشرحتها.

الرابع: علم اللغة، قال: ويرجع في ذلك إلى كتب اللغة، كصحاح الجوهري بتكملته للصغاني والعباب والقاموس ونحوها، وإلى الكتب المؤلفة في غريب القرآن وغريب الحديث.

الخامس: المعاني المفهومه من السياق، قال: وألف فيه الراغب كتابه «مفردات القرآن»، وعقدت له في الإتقان فصلاً.

السادس والسابع: النحو والصرف، قال: وكتبي فيهما كثيرة، ولو لم يكن إلا «جمع الجوامع»[٧] وشرحه[٨] لكان لكن فيهما غنية كبيرة.

---

(١) طبع في القاهرة سنة ١٩٦٧ بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) طبع عدة مرات على هامش تفسير الجلالين.

(٣) طبع بمصر سنة ١٣١٤هـ، وبطهران سنة ١٣٧٧هـ نشر محمد أمين دمج.

(٤) طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٤.

(٥) توجد نسخة مخطوطة بمكتبة برلين: ٦/٧٢٣ تحت اسم: قطف الأزهار في كشف الأسرار.

(٦) الكوكب الساطع في نظم جمع الجوامع، طبع في: البسفور سنة ١٣٣٢هـ.

(٧) مطبعة السعادة بمصر: ١٣٢٧هـ، ودار المعارف ببيروت: ١٩٧٣.

(٨) يسمى: همع الهوامع، نشر بتحقيق: عبدالسلام هارون وعبدالعال سالم مكرم، بيروت: ١٩٧٥ وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الثامن والتاسع والعاشر: المعاني والبيان والبديع، قال: وقد ألفت فيها ألفية وشرحتها[1].

الحادي عشر: علم الإجماع والخلاف، وهذا يؤخذ من غضون الكتب، ولا يشترط حفظ الكل، بل يعرف مواقعه ليراجعه عند الحاجة.

الثاني عشر: علم الحساب، قال: وهذا شرط في المجتهد المطلق في جميع أبواب الشرع، أما المجتهد فيما عدا الفرائض ونحوها فلا يشترط فيه.

الثالث عشر: فقه النفس.

الرابع عشر: الإحاطة بمعظم قواعد الشرع، وهذا وما قبله واحد.

الخامس عشر: علم الأخلاق ومداواة القلوب، أخذاً من كلام صاحب «قوت القلوب»[2].

وهكذا يكون السيوطي قد أثبت مدعاه حين قال: «وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى»[3].

طبيعة اجتهاد السيوطي:

حدد السيوطي في كثير من كتبه ورسائله ومقاماته[4] طبيعة الاجتهاد الذي يدعيه، فبين أنه «مجتهد مطلق منتسب» تابع للإمام الشافعي[5] رضي الله عنه. وتحرير ذلك: أنه

(١) لعلها: حل (أو شرح) عقود الجمان في علم المعاني والبيان، طبع عدة مرات: مطبعة شرف بالقاهرة: ١٣٠٢هـ، مطبعة التقدم: ١٣٢١هـ، البابي الحلبي: ١٩٣٩.

(٢) أبو طالب المكي المتوفى سنة ٣٨٦هـ، قوت القلوب، طبع بالقاهرة سنة: ١٩١٠.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٣٩.

(٤) من ذلك: إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين، تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد، الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، رسالة في الاجتهاد، نزول الرحمة بالتحدث بالنعمة، التحدث بنعمة الله، منظومة في المجتهدين، إرشاد المهتدين إلى أسماء المجددين، تحفة المجتهدين بأسماء المجددين.. وغير ذلك.

(٥) السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض، ص ١١٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نقل عن أئمة المذاهب وأصحابهم الأمر بالاجتهاد والنهي عن التقليد، وخاصة قول أبي طالب المكي في قوت القلوب: «اعلم أن العبد إذا كاشفه الله بالمعرفة واليقين لم يسعه تقليد أحد من العلماء، وكذلك كان المتقدمون: إذا افتتحوا هذا المقام خالفوا من حملوا عنه العلم، ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التقليد..»[1].

كما نقل عنهم أن المجتهد المطلق هو الذي يتأدى به فرض الكفاية، أما المجتهد المقيد فظاهر كلام الأصحاب أنه لا يتأدى به فرض الكفاية.. ويظهر تأدي الفرض به في الفتوى، وإن لم يتأد به في إحياء العلوم التي منها استمداد الفتوى[2]. وخلص من ذلك إلى أن المجتهدين يندرجون تحت خمسة أنواع:[3].

النوع الأول: المجتهد المستقل وهو الذي استقل بقواعده لنفسه، يبني عليها الفقه خارجاً عن قواعد المذاهب المقررة. وهذا شيء فقد من دهر، بل لو أراده الإنسان اليوم لامتنع عليه ولم يجز له، لاستيعاب المتقدمين لسائر الأساليب.

النوع الثاني: المجتهد المطلق غير المستقل، وهو الذي وجدت فيه شروط الاجتهاد التي اتصف بها المجتهد المستقل، ثم لم يبتكر لنفسه قواعد، بل سلك طريق إمام من أئمة المذاهب في الاجتهاد، فهذا مطلق منتسب لا مستقل ولا مقيد، قال: «وادعى الأستاذ أبو إسحاق هذه الصفة لأصحابنا، فحكى عن أصحاب مالك وأحمد وداود وأكثر الحنفية أنهم صاروا إلى مذاهب أئمتهم تقليداً لهم، ثم قال: والصحيح الذي ذهب إليه أصحابنا، وهو: أنهم صاروا إلى مذهب الشافعي، لا تقليداً له، بل وجدوا طريقه في الاجتهاد والقياس أسد الطرق، ولما لم يكن لهم بد من الاجتهاد سلكوا طريقه، فطلبوا معرفة الأحكام بطريق الشافعي»[4].

النوع الثالث: المجتهد المقيد أو مجتهد التخريج وهو الذي يستقل بتقرير أصوله

(١) نفس المرجع السابق، ص ١١٨ - ١١٩.
(٢) نفس المرجع، ص ٧٥/٧٦، ١١٥.
(٣) نفس المرجع، ص ١١٢ - ١١٤.
(٤) نفس المرجع، ص ١١٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالدليل، غير أنه لا يتجاوز في أدلته أصول إمامه وقواعده، وشرطه: كونه عالماً بالفقه وأصوله وأدلة الأحكام تفصيلاً، بصيراً بمسالك الأقيسة والمعاني، تام الارتياض في التخريج والاستنباط، قيماً بإلحاق ما ليس منصوصاً عليه لإمامه بأصوله. ولا يعرى عن شوب تقليد له لإخلاله ببعض أدوات المستقل، بأن يخل بالحديث أو العربية، وكثيراً ما أخل بهما المقيد... وهذه صفة أصحابنا أصحاب الوجوه[1].

النوع الرابع: مجتهد الترجيح، وهو الذي لم يبلغ الرتبة السابقة، ولكنه فقيه النفس، حافظ لمذهب إمامه، عارف بأدلته، قائم بتقريرها، يصور ويحرر ويقرر ويمهد ويزيف ويرجح، غير أنه قاصر في الارتياض في الاستنباط ومعرفة الأصول ونحوها من أدلتها[2].

النوع الخامس: مجتهد الفتيا، وهو الذي يقوم بحفظ المذهب ونقله وفهمه في الواضحات والمشكلات، ولكن عنده ضعف في تقرير أدلته وتحرير أقيسته، فهذا يعتمد نقله وفتواه فيما يحكيه من مسطورات مذهبه[3].

وفي ختام هذا الموضوع يقول السيوطي: «والذي ادعيناه هو الاجتهاد المطلق، لا الاستقلال، بل نحن تابعون للإمام الشافعي رضي الله عنه، وسالكون طريقه في الاجتهاد امتثالاً لأمره، ومعدودون من أصحابه. وكيف يظن أن اجتهادنا مقيد، والمجتهد المقيد إنما ينقص عن المطلق بإخلاله بالحديث أو العربية، وليس على وجه الأرض من مشرقها إلى مغربها أعلم بالحديث والعربية مني، إلا أن يكون الخضر أو القطب أو ولياً لله، فإن هؤلاء لم أقصد دخولهم في عبارتي، والله أعلم»[4].

(١) نفس المرجع، ص ١١٤/١١٥.

(٢) نفس المرجع، ص ١١٥.

(٣) نفس الموضع: نقلاً عن النووي في المجموع شرح المهذب، تبعاً لابن الصلاح في كتاب: آداب الفتيا.

(٤) السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض، ص ١١٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثانياً – دعوى المبعوثية

فكرة المبعوثية:

نقل السيوطي ما رواه أبو داود في سننه، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» قال الحافظ أبو الفضل العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: إسناده صحيح. ثم بين الحكمة من ذلك بقوله: وإنما كان التجديد على رأس كل مائة سنة لانخرام علماء المائة غالباً واندراس السنن، وظهور البدع، فيحتاج حينئذ إلى تجديد الدين، فيأتي الله من الخلف بعوض عن السلف. وعلى هذا المعنى ينزل حديث : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، ما أقاموا الدين، لا يضرهم من خذلهم»(١).

وتعيين المجدد يكون بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه؛ فإنه ينبغي أن يكون عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصراً للسنة قامعاً للبدعة وأن تنقضي المائة وهو مشهور حتى يشار إليه. ثم إن المجدد قد يكون واحداً في العالم كله، وقد يكون اثنين أو جماعة(٢)، إلا أن السيوطي يرجح أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلاً واحداً مجتهداً مشاراً إليه في كل الفنون، وسنده في هذا الترجيح: ما أخرجه أبو اسماعيل الهروي عن حميد بن زنجويه قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يروى في الحديث عن النبي ﷺ «يمن على أهل دينه في رأس كل مائة سنة برجل فيبين لهم أمر دينهم»(٣).

أسماء المجددين:

استعرض السيوطي في «التنبئة بمن يبعثه الله على رأس المائة» وفي «تحفة المهتدين بأسماء المجددين» وفي «تقرير الاستناد» و «الرد على من أخلد إلى الأرض» أسماء

(١) السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض، ص ٩ – ١١.

(٢) نفس المرجع، ص ١٠. وانظر له أيضاً: تحفة المجتهدين في أسماء المجددين دار الكتب المصرية: ٤٨٥ مجاميع، وانظر كذلك: التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة، دار الكتب المصرية: ٩٨ مجاميع.

(٣) السيوطي، تقرير الاستناد، ص٥٩/٦٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المجددين في المئات المتتالية، وقد بلغ كل منهم رتبة الاجتهاد ونال الشهرة والقبول[1].

في رأس المائة الأولي: الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز، وكانت وفاته سنة إحدى ومائة.

وفي رأس المائة الثانية: الإمام الشافعي، وكانت وفاته سنة أربع ومائتين.

وفي رأس المائة الثالثة: أبو العباس بن سريج، وتوفى سنة ست وثلاثمائة. وقيل: أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤هـ، حيث إنه رجع عن مذهب المعتزلة ونصر مذهب السنة.

وعلى رأس المائة الرابعة: قيل سهل بن محمد الصعلوكي، وقيل أبو حامد الإسفراييني، وقيل القاضي أبو بكر الباقلاني.

وعلى رأس المائة الخامسة: حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، ووفاته سنة ٥٠٥هـ.

وعلى رأس المائة السادسة: الإمام فخر الدين الرازي، وكانت وفاته سنة ٦٠٦هـ.

وعلى رأس المائة السابعة: تقي الدين ابن دقيق العيد، وكانت وفاته سنة ٧٠٢هـ.

وعلى رأس المائة الثامنة: قيل سراج الدين البلقيني، وقيل ناصر الدين ابن بنت المليق الشاذلي، ويحتمل أنه الشيخ زين الدين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦هـ.

مجدد المائة التاسعة:

في العقد الأخير من المائة الثامنة بدأ السيوطي يستعرض علماء عصره بحثاً عن مجدد المائة التاسعة ليترجم له بعد أن أنهى ترجمته لمجدد المائة الثامنة: شيخ الإسلام سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، البلقيني، مجتهد عصره وعالم المائة الثامنة[2]، ولكنه وجد نفسه وقد أتاه الله من العلم ما لم يؤته لأحد من علماء زمانه، فرزقه

(١) تقرير الاستناد: ٦٠ - ٦٢ والهوامش. الرد على من أخلد إلى الأرض: ٩/١٠. وانظر: المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي، ص ٩٥.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٢٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع، فوصل فيها إلى ما لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخه، فضلاً عمن هو دونهم، باستثناء الفقه الذي كان شيخه فيه أوسع نظراً وأطول باعاً، ودون هذه السبعة في المعرفة: أصول الفقه والجدل والتصريف، ودونها: الإنشاء والترسل والفرائض، ودونها القراءات، ودونها الطب، ودونها الحساب والمنطق[1]. ولما كان من شروط المجدد أن يكون عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، فإنه وجد نفسه - بعد التضلع من علوم الظاهر - قد اشتغل بتحصيل علوم الباطن واستفادتها من أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك وحسن الاعتقاد والإخلاص والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل، حتى رأى الرسول ﷺ في اليقظة والمنام[2]. وهكذا قال في نهاية ترجمته للبلقيني: «ومن اللطائف أن شطر المبعوثين على رأس القرون مصريون: عمر بن عبدالعزيز في الأولى، والشافعي في الثانية، وابن دقيق العيد في السابعة، والبلقيني في الثامنة، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر»[3]، ثم ترجم لنفسه عقب ترجمة البلقيني مختتماً بذلك تراجم المجتهدين. وفي كتابه «التحدث بنعمة الله» يصرح بمراده قائلاً: «فنحن الآن في سنة ست وتسعين وثمانمائة، ولم يجيء المهدي ولا عيسى ولا أشراط الساعة.. وقد ترجى الفقير - السيوطي - من فضل الله أن ينعم عليه، بكونه هو المجدد على رأس المائة.. وما ذلك على الله بعزيز»[4].

وفي مقام آخر نجده يقول: «إني ترجيت من نعم الله وفضله - كما ترجى الغزالي لنفسه - أني المبعوث على هذه المائة التاسعة، لانفرادي عليها بالتبحر في أنواع العلوم»[5].

(١) نفس المرجع، ص ٣٣٨/٣٣٩. وفيه: «التوسل» بدل «الترسل».

(٢) عصام الدين عبدالرؤوف، مؤلفات السيوطي، في ندوة جلال الدين السيوطي، ص ١١٨.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١ ص ٣٢٩. وفيه: «شرط المبعوثين»، وقد نقله عنه هكذا كل الباحثين في هذه المسألة! دون التفات إلى المعنى.

(٤) السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض، ص ١١.

(٥) نفس المرجع، ص ١٣. وانظر: الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: عبدالحليم محمود، بيروت: ١٩٧٩، ص ١٥٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي منظومته «تحفة المهتدين بأسماء المجددين» قال:[1]

وهـذه تاسعـة المئيـن قـد أتـت ولا يخلـف ما الهادي وعـد

وقـد رجـوت أنـي المجـدد فيهـا ففضـل اللـه ليـس يجحـد

ولما رأى من بعض معاصريه إنكاراً لذلك وتشنيعاً عليه، صنف مقامة[2] جاء فيها: «تبارك الذي من على بحفظ السنة، وآتاني من العلوم والحجج ما هو أمضى من الأسنة، وجعلني رغم أنف كل عدو تقاد إلى الأعناق بالأعنة، وحباني منصب الاجتهاد والتجديد على رأس هذه المائة التاسعة، وصدق وعد نبيه ﷺ الذي جاءت به الأحاديث الصحيحة الساطعة، وأحوج إلى الاستمداد منى كل من هو الآن على ظهر البسيطة، واعترف كل من يعرفني في أقطار الأرض بأن دائرتهم بما حواه بحري المحيط غير محيطه، ونشر علومي في الآفاق، وبث في جميع الممالك الإسلامية ما أبرزته يدي من التصانيف وثمار الأوراق»[3].

ثالثاً – مظاهر التجديد لدى السيوطي

١ – اختلاف المذاهب:

تعرض السيوطي لقضية شاعت في عصره، وتولى الترويج لها أتباع المذاهب الفقهية، وهي قضية التعصب المذهبي وتفضيل بعض المذاهب على البعض الآخر، حتى قال مفتي المالكية: من تحول عن مذهبه فبئس ما صنع، وقال بعض الحنفية: إنه يجوز لغير الحنفي أن يتحول حنفيا، ولا يجوز للحنفي أن يتحول شافعياً أو غيره[4]، فصنف في مناقب الأئمة[5]. ووضع رسالة قيمة في «اختلاف المذاهب» بين فيها أن اختلاف المذاهب في

(١) السيوطي، تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد، ص ٦١، هـ ٨٦.

(٢) السيوطي، المقامة الكلاجية في الأسئلة الناجية، مخطوط دار الكتب المصرية: ١٥١٠.

(٣) عبدالعال سالم مكرم، جلال الدين السيوطي، ص ١٥٦/١٥٧ والمراجع التي ذكرها.

(٤) السيوطي، جزيل المواهب في اختلاف المذاهب، تحقيق عبدالقيوم بن محمد شفيع البستوي، القاهرة: ١٩٨٩ ص ٤٤.

(٥) تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة، طبعت ضمن: الرسائل العشر، بيروت: ١٩٨٩، ص ٢٥٥ وما بعدها. تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، المطبعة الخيرية بالقاهرة: ١٣٢٥هـ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفروع رحمة من الله على هذه الأمة، وتوسيع في هذه الشريعة السمحة السهلة، وأن المذاهب على اختلافها كشرائع متعددة كل مأمور بها في هذه الشريعة، فصارت هذه الشريعة كأنها عدة شرائع بعث النبي ﷺ بجميعها[1]. ثم رجح القول بأن كل مجتهد مصيب، وأن حكم الله في كل واقعة تابع لظن المجتهد[2]، وأنه يجوز الانتقال من مذهب إلى مذهب إذا ترجح المذهب الآخر لوضوح أدلته وقوة مداركه[3]، وفي خاتمة الرسالة ذكر من الأئمة الأعلام من انتقل من مذهبه إلى مذهب غيره [4].

٢ - في الفكر السياسي:

تتضح النظرية السياسية للسيوطي من خلال بعض مؤلفاته، وخاصة «تاريخ الخلفاء»[5]، ومقياس صحة الخلافة لديه يكمن في أربعة أمور:

أولها: انتساب الخليفة إلى قبيلة قريش، ولهذا فإنه لا يعترف بالدولة العثمانية، وإنما يسمى السلطان العثماني «ملك الروم». وينتقد موقف سلاطين المماليك الذين فوض إليهم الخلفاء العباسيون فاستبدوا بالأمر دونهم، وخاصة موقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي قبض على الخليفة المستكفي واعتقله ومنعه من لقاء الناس ثم نفاه إلى قوص، وموقف السلطان برقوق حين عزل الخليفة المتوكل وسجنه بقلعة الجبل، ويمتدح السلطان الأشرف صلاح الدين خليل، لأنه أظهر أمر الخليفة وكان خاملاً في أيام أبيه.

والثاني: عدم تولى الخلافة في وقت سبق فيه خليفة آخر إلى البيعة بالخلافة، ولهذا فالخليفة الخامس عنده هو الحسن بن علي، ومعاوية سادس الخلفاء.

والثالث: اشتراك الغالبية العظمى في البيعة بالخلافة، ولذا فإنه يعتبر عبدالله بن الزبير

---

(١) السيوطي، جزيل المواهب، ص ٢٧ - ٢٩.

(٢) نفس المرجع، ص ٣٥.

(٣) نفس المرجع، ص ٤١ - ٤٥.

(٤) نفس الرسالة، ص ٥٣ - ٥٨.

(٥) علي حسني الخربوطلي، دراسات نقدية وتحليلية لكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي، في ندوة «جلال الدين السيوطي»، ص ١٥٤ - ١٩٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هو الخليفة الشرعي دون مروان بن الحكم، فلا يذكره ضمن الخلفاء ولا يعترف بشرعية عهده لابنه عبدالملك.

والرابع: عدم جواز قيام إمامين في وقت واحد. ولهذا لا يعترف بالخلافة الأموية في الأندلس، بل يسمى «عبدالرحمن الناصر»: صاحب الأندلس. ولهذا السبب أيضاً فإنه لا يعترف بالخلافة الفاطمية، بل يسمى الخليفة منهم: صاحب مصر، وقد أنكر نسبهم إلى السيدة فاطمة الزهراء وسماهم «العبيديين»، واعتبرهم أخطر على الأمة من التتار، واتهمهم بتحريض الصليبيين على غزو الشام حينما استولى السلاجقة على هذه البلاد.

٣ - في النظام الاقتصادي:

أدرك السيوطي ما حدث في عصره من انهيار نظام الوقف في مصر نتيجة استيلاء السلاطين والأمراء المماليك بعد عصر السلطان برقوق على الأراضي الموقوفة في مصر والشام وبيع المنشآت الموقوفة وإعطاء أثمانها للمنتفعين بها أو تسليمها لبيت المال، هذا بالإضافة إلى سوء الإشراف على الأوقاف الباقية مما أدى إلى قلة إيرادها[١]، لهذا أفتى في مناسبات عديدة بالتمييز بين قسمين من الأوقاف: قسم ليس مأخذه من بيت المال ولا مرجعه إليه، وهذا مبناه على التشديد فلا يجوز تناول ذرة منه إلا مع استيفاء شرط الواقف، وقسم مأخذه من بيت المال بأن يكون واقفه خليفة أو ملكاً، أو يكون مرجعه إلى بيت المال كأوقاف أمراء الدولة القلاوونية ومن بعدهم - لأن واقفيه أرقاء بيت المال وفي ثبوت عتقهم نظر - وهذا القسم مبناه على المسامحة، ويجوز إعادته إلى بيت المال[٢].

وقد لاحظ السيوطي تلاعب السلاطين بالعملة، فكان السلطان يعمد إلى ضرب نقود جديدة يجعل قيمتها أكبر مما في أيدي الناس فيخسرون أموالا طائلة ويستفيد هو

(١) حسنين محمد ربيع، منهج السيوطي في كتابة التاريخ، ضمن ندوة «جلال الدين السيوطي»، ص ٣٧ - ٧٢.

(٢) السيوطي، الحاوي للفتاوي، جـ ١ ص ١٩٨ - ٢١٠. وانظر: المرجع السابق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بفرق القيمة، فيحدث الاضطراب والقلق في الأسواق[١]، وقد كتب السيوطي في أحكام تغيير العملة رسالة «قطع المجادلة عند تغيير المعاملة»، بين فيها الحكم الشرعي: «هل يطالب من عليه الدين بقيمته يوم اللزوم أو يوم المطالبة، وهل يأخذ من الفلوس الجدد المتعامل بها عدداً بالوزن أو بالعدد»[٢]

٤ – في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

في «رسالة إلى ملوك التكرور»[٣] قام السيوطي بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حينما علم أن بعض حكام تلك البلاد وأمرائها تجاوزوا حدود الله في أحكامهم وظلموا رعيتهم وفرقوا في إقامة العدل بين من ينتمي إليهم وبين سائر الناس، فكتب إليهم يوصيهم بتقوى الله والوقوف عند حدود أحكامه، ويحذرهم من غضب الله عليهم وإنزال عذابه بهم، ويأمرهم بأن يقيموا السلطنة بعدلها ويؤدوا الأمانة إلى أهلها.

وفي رسالة أخرى إليهم[٤]، كتب إلى الشيخ العالم الصالح شمس الدين محمد بن محمد بن علي اللمتوني، يرد على أسئلته التي تتعلق بفعل الملوك والرعية لأمور مذمومة ومحرمة شرعاً وبعضها مقتض للكفر، وبعث مع الجواب ببعض كتبه ورسائله.

٥ – مسائل متفرقة:

ذكر السيوطي أنه خالف أهل عصره في خمسين مسألة، وأنه ألف في كل مسألة مؤلفاً يبين فيه وجهة نظره[٥]. وفي «التحدث بنعمة الله» ختم السيوطي الكتاب بجملة المسائل التي له فيها اختيار على وجه الاختصار، وذكر أنها مبسوطة بأدلتها في

---

(١) طاهر سليمان حمودة، جلال الدين السيوطي، ص ٤٦ والمراجع التي أشار إليها.

(٢) السيوطي، الحاوي للفتاوي، جـ ١ ص ١٢٧ ١٤٠.

(٣) بلاد التكرور: غانا والسنغال والنيجر، والرسالة مخطوطة بدار الكتب المصرية: ٤١٦ مجاميع.

(٤) السيوطي، فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور، الحاوي للفتاوي، جـ ١ ص ٣٨٥ – ٣٨٨.

(٥) عبدالحليم هاشم الشريف، السيوطي وجهوده في علوم القرآن، ص ٧٠ نقلاً عن: الشبلي اليمني، السنا الباهر بتكميل النور السافر، ص ٨٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

«حواشي الروضة». فمن أهم هذه المسائل[1].

أ ـ السواك إنما يكره للصائم بعد العصر، لا بعد الزوال.

ب ـ الترتيب في الوضوء شرط لا ركن، «ولم أر من سبقني إليه».

جـ ـ من خاف غلبة النوم قبل العشاء، فله أن يصلي العشاء في وقت المغرب ثم ينام.

د ـ أن الأذان والإقامة وصلاتي العيدين من فروض الكفايات.

هـ ـ أن الجمعة تنعقد بأربعة أنفس، أحدهم الإمام.

و ـ الجمع بين الصلاتين بعذر المرض تقديماً وتأخيراً جائز.

ز ـ تارك الصلاة لا يقتل، بل يعزر بالحبس والضرب ونحوهما.

ح ـ يجوز صرف الزكاة لواحد.

ط ـ كل من سعى في الأرض بالفساد يقتل.

ي ـ شارب الخمر يقتل في الرابعة.

خـاتمـة

بعد هذا العرض الموجز لما قدمه السيوطي في المجال الفقهي، يحق لنا أن نشير إلى ما خلفه السيوطي من آثار في محيط عصره، حين أعمل فكره في البحث أو الاستنباط لإيجاد حلول تتلاءم وحاجات مجتمعه الإسلامي في شتى أقطاره، وحين ضرب المثل لعلماء عصره بصفاء الباطن، والزهد عما في أيدي الآخرين، والإسهام في إثراء التراث وإيصاله نقياً إلى مختلف الأجيال. وهكذا كان شأن السيوطي بعد موته. فقد انتفع بعلمه الجم الغفير من العلماء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم، ويكفي ثناء الشوكاني عليه حيث وصفه بأنه: «إمام كبير في الكتاب والسنة، محيط بعلوم الاجتهاد إحاطة

(١) السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض، ص ٢٠ - ٢٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

متضاعفة، عالم بعلوم خارجة عنها[1]، وقال في مقام آخر: «جرت عادة الله سبحانه - كما يدل عليه الاستقراء - برفع شأن من عودي بسبب علمه وتصريحه بالحق، وانتشار محاسنه بعد موته، وارتفاع ذكره، وانتفاع الناس بعلمه، وهكذا كان أمر صاحب الترجمة - السيوطي - فإن مؤلفاته انتشرت في الأقطار، وسارت بها الركبان إلى الأنجاد والأغوار، ورفع الله له من الذكر الحسن والثناء الجميل ما لم يكن لأحد من معاصريه، والعاقبة للمتقين»[2].

إن الثقافة الموسوعية التي من الله بها على السيوطي، ونفع بها أبناء عصره وأجيالاً تلته، تعتبر خير معين يجب أن ينهل منه كل مخلص في بناء نهضتنا المعاصرة. وأحق ما ينبغي إزاء ذلك: أن ننفض عن تفكيرنا غبار التقليد، ونقتحم أمواج الاجتهاد - بعد الأخذ بأسبابه، واستكمال آلاته - لمواجهة ما استجد في عالم الفكر والاجتماع والاقتصاد والعلوم والطب والفلك وغيرها، فنطوعها وفقاً لأصول ديننا، ونضع الحلول الملائمة لما تثيره من مشكلات في المجتمع المسلم.

والله ولي التوفيق،،،

(١) الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار الفكر، بيروت: د.ت، ص ٢٥٤.

(٢) الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مرجع سابق، جـ ١ ص ٣٣٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المراجع والمصادر

١ ـ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة: ١٣٧٩هـ.

٢ ـ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية: ١٩٣٠.

٣ ـ ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٧٨.

٤ ـ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة: ١٣٥١هـ

٥ ـ ابن نجيم، الأشباه والنظائر، تحقيق وتقديم: محمد مطيع الحافظ، دمشق: ١٩٨٣.

– أحمد تيمور:

٧ ـ قبر الإمام السيوطي وتحقيق موضعه، المطبعة السلفية، القاهرة: ١٣٤٦هـ.

٧ ـ نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة، تقديم الشيخ محمد أبو زهرة، دار القادري، بيروت: ١٩٩٠.

٨ ـ أحمد الخازندار، ومحمد إبراهيم الشيباني، دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، مكتبة ابن تيمية، الكويت: ١٩٨٣.

٩ ـ أحمد الشرقاوي، مكتبة الجلال السيوطي، الرباط: ١٩٧٧.

١٠ـ إسماعيل البغدادي، هدية العارفين، استامبول: ١٩٥١ – ١٩٥٥.

١١ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبدالحليم النجار، دار المعارف، القاهرة: ١٩٦١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١٢- جلال الدين السيوطي، بحوث ألقيت في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٧٨.

١٣- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت: ١٩٨٢.

١٤- دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الفرنسية والترجمة العربية، مادة «السيوطي».

١٥- الزركشي، المنثور في القواعد، تحقيق: تيسير فائق، الكويت: ١٩٨٢.

١٦- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة: ١٣٥٣هـ وما بعدها.

١٧- سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة: ١٩٦٢.

١٨- سليمان الجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، القاهرة: ١٩٣٣.

السيوطي:

١٩- الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: ١٩٦٧.

٢٠- اختلاف المذاهب، حققه وعلق عليه: عبدالقيوم بن محمد شفيع البستوي، دار الاعتصام، القاهرة: ١٩٨٩.

٢١- أدب الفتيا، تحقيق: محيي الدين هلال السرحان، بغداد: ١٩٨٦.

٢٢- الأشباه والنظائر، في قواعد وفروع فقه الشافعية، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٧٩.

٢٣- الأشباه والنظائر، في النحو، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٩٨٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٢٤- الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: أحمد بن محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة: ١٩٧٦.

٢٥- بسط الكف في إتمام الصف، تحقيق: عدنان أحمد مجود، مكتبة دار الوفاء، جدة: ١٤٠٧هـ.

٢٦- بغية الوعاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: ١٩٦٥.

٢٧- التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث مارس سارتين، القاهرة - كمبردج: ١٩٧٥.

٢٨- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، القاهرة: ١٩٥٩.

٢٩- تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، طبع بدون ذكر الناشر، سنة ١٣٢٥هـ.

٣٠- التعريف بآداب التأليف، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٨٩.

٣١- تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم أحمد، الإسكندرية: ١٩٨٣.

٣٢- الحاوي للفتاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

٣٣- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: ١٩٦٧.

٣٤- حسن المقصد في عمل المولد، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت: ١٩٨٥.

٣٥- حقيقة السنة والبدعة، أو: الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع، تحقيق: خليل إبراهيم، دار الفكر اللبناني، بيروت: ١٩٩٢.

٣٦- الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣٧- الرسائل العشر، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٩.

٣٨- الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق: إبراهيم السامرائي، بغداد.

٣٩- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، تحقيق: علي سامي النشار، القاهرة: ١٩٤٦.

٤٠- الفتح الكبير، صحيح الجامع الصغير وزياداته، تحقيق: ناصر الدين الألباني، عمان: ١٩٦٩.

٤١- لب اللباب في تحرير الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، عن طبعة ليدن: ١٨٤٠.

٤٢- اللمعة في خصائص يوم الجمعة، تحقيق: محمد شكور الميادني، مكتبة المنار، الأردن: ١٩٨٦.

٤٣- المزهر، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: ١٣٨٢هـ.

٤٤- معترك الأقران في مشترك القرآن، تحقيق: على محمد البجاوي، القاهرة: ١٩٦٩.

٤٥- المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي، تحقيق: أحمد شفيق دمج، دار ابن حزم، بيروت: ١٩٨٨.

٤٦- نزول الرحمة في التحدث بالنعمة، تحقيق عبدالحميد منير شانوحة، دار الوفاء، جدة: ١٤٠٧هـ.

٤٧- نظم العقيان في أعيان الأعيان، نشر: فيليب حتي، المطبعة السورية الأمريكية: ١٩٢٧.

٤٨- همع الهوامع شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبدالسلام هارون وعبدالعال سالم مكرم، الكويت: ١٩٧٥ وما بعدها.

٤٩- الشافعي، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، القاهرة: ١٩٤٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٥٠- الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة، القاهرة: ١٣٤٨هـ.

٥١- طاهر سليمان حمودة، جلال الدين السيوطي، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٩.

٥٢- عامر حسن صبري، مصادر السيوطي في الدر المنثور، مجلة كلية الآداب - جامعة الإمارات العربية المتحدة، العدد الرابع، سنة ١٩٨٨.

٥٣- عبدالحليم هاشم الشريف، السيوطي وجهوده في علوم القرآن، القاهرة: ١٩٩١.

٥٤- عبدالعال سالم مكرم، جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية، مؤسسة الرسالة بيروت: ١٩٨٩.

٥٥- عبدالمتعال الصعيدي، المجددون في الإسلام، مكتبة الآداب، القاهرة: ١٩٦٢.

٥٦- عبدالوهاب حمودة، صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي. القاهرة: ١٩٦٥.

٥٧- عبدالوهاب عزام، مجالس السلطان الغوري، القاهرة ١٩٤١.

٥٨- عدنان محمد سلمان، السيوطي النحوي، دار الرسالة، بغداد: ١٩٧٦.

٥٩- علي صافي حسين، الإمام جلال الدين السيوطي، دار التحرير، القاهرة: ١٩٧٢.

٦٠- العيدروسي، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق: محمد رشيد الصفار، المكتبة العربية، بغداد ١٩٣٤.

- الغزالي

٦١- المستصفي من علم الأصول، تحقيق: مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي، القاهرة: ١٩٧١.

٦٢- المنخول من تعليقات الأصول، تحقيق: محمد حسن هيتو، لم يذكر مكان الطبع: ١٩٧٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٦٣- فؤاد السيد، نصان قديمان في إعارة الكتب، مجلة معهد المخطوطات العربية، مايو ١٩٥٨.

٦٤- محمد جلال أبو الفتوح، جلال الدين السيوطي: منهجه وآراؤه الكلامية، دار النهضة العربية، بيروت: ١٩٨٦.

٦٥- محمد حسن هيتو، الاجتهاد وطبقات مجتهدي الشافعية، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٩٨٨.

٦٦- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة: ١٩٧٦.

٦٧- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، القاهرة: ١٣٦٦هـ

٦٨- نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، المطبعة الأميركانية، بيروت: ١٩٤٥.

- النووي:

٦٩- روضة الطالبين، المكتب الإسلامي، دمشق: ١٩٦٦.

٧٠- المجموع شرح المهذب، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، المكتبة العالمية بالفجالة، القاهرة: ١٩٧١.

٧١- ولي الدين الدهلوي، الإنصاف في بيان أسباب الخلاف، راجعه وعلق عليه: عبدالفتاح أبو غدة، دار النفائس، بيروت: ١٩٧٨.